الخلاف وتعقيداته السياسية/ الدولية الى نشوب حرب القرم وبعدها اصدر السلطان العثماني في ١٨٥٦م - كما درسنا- مرسوماً جديداً باسم «خطي شريف همايون» الذي تضمن اعترافاً صريحاً بالمساواة الكاملة بين جميع الاديان في الامبراطورية العثمانية في شؤون الضرائب والقضاء والحقوق والواجبات المدنية*.

عوامل الانبعاث والنهضة الفكرية عند العرب في القرن التاسع عشر:-

إذا كان القرن التاسع عشر قد اتّسم بـ «الثورة الصناعية» في اوروبا، وولادة المناهج العلمية والفلسفية الحديثة، اضافة الى كونه «عصر الرومانسية».. فقد اتسم بالظاهرة الاستعمارية للوطن العربي، وولادة الحركات الاصلاحية، والتفكير بالانفتاح على العالم، وعلى اوروبا بدرجة اولى .. فظهر خلاله كثير من عوامل الانبعاث والنهضة الفكرية.. ناهيك عن ولادة وتبلور انظمة سياسية وادارية واقتصادية جديدة، تّم تطبيقها في اكثر من مكان من البيئة العربية (وقد فصّلنا في الفصول المتقدمة العديد من الأساسيّات التاريخية في حياة العرب خلال القرن التاسع عشر). ويمكننا ان نقف قليلاً عند ابرز العوامل التاريخية التي عملت على تبلور نهضة فكرية في اكثر من مكان، ويمكننا تحديد ذلك بـ مصر وسوريا ولبنان وتونس والمغرب والموصل:

١ كان للحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨- ١٨٠١م، اثرها البالغ في حركة النهضة الفكرية -- العربية، إذ فتحت ابواب مصر وبلاد الشام على مظاهر التحضر الاوروبي الحديث، اذ كان يرافق الحملة عدد كبير من العلماء الفرنسيين الذين قاموا بانجاز كثير من المهام العلمية والفنية والتقنية في مصر .. منحت جميعها للمصريين امكان التفاعل معها ضمن اطر ومجالات متنّوعة.

---

*For detais see MosheMa'os Ottoman Peform in Syria and Palestine, Oxford Univ. Press 1968.

وانظر د. عبد الكريم غرايبة، سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠- ١٨٧٦، جامعة الدول العربية، ١٩٦٠ ١٩٦٢. ايضا

A. L. Tibawi, A modern history of Syria, including Lebanon and Palestine: Macmillan St. Martin's Press, 1969.

٢- كان للارساليات التبشيرية والعلمية والآثارية دورها الفعّال في تنبيه الرأي العام العربي الى فجوة التخلف بينه وبين العالم المتقدم.. وعلى الرغم من توافد تلك الإرساليات الى بلاد الشام والعراق منذ القرن السابع عشر، كان معظمها يبشر بالمذهب الكاثوليكي، الا ان القرن التاسع عشر يعّد عصرها الذهبي، إذ شهد حركة واسعة في بيئات عربية عديدة لتلك الارساليات التي انشأت المدارس والجمعيات العلمية والادبية، ونشطت في مجالات الخدمات الصحية والترجمة وتحديث اللغة العربية.. ومن ابرز جمعياتهم. «زهرة الآداب» و «جمعية المقاصد الخيرية» و «الجمعية الخيرية» و «المجمع العلمي الشرقي» و «الجمعية التاريخية» و «جمعية الفنون الطبية».*

٣- اسهم محمد علي باشا حاكم مصر في بلورة النهضة بمصر ورعى البذور التي زرعها الفرنسيون فيها، وقام بارسال المزيد من البعثات العلمية الى اوروبا (وخاصة فرنسا) فكان ذلك عاملاً غير مباشر في رفد الثقافة العربية خلال القرن التاسع عشر بالافكار الجديدة والعناصر المستنيرة، كان من ابرز روادها: رفاعة رافع الطهطاوي ١٨٠١- ١٨٧٣م والشيخ علي مبارك ١٨١٦- ١٨٨٦م، وصالح مجدي وعبد الله ابو السعود وعبد الله فكري وغيرهم.

٤- كانت للطباعة والصحافة الآثار البالغة في بلورة النهضة واتساع الاستنارة، إذ ساهمت المطابع في نشر كثير من المؤلفات والكتب العربية التراثية واللغوية والتاريخية وخصوصاً في لبنان والموصل وسوريا ومصر.. كما ونهضت «الصحافة» بدور طليعي وتحديثي في تقويم الحياة الثقافية العربية، وازداد حجم انتشار الصحافة في البلاد والمدن العربية، فايقظت الاذهان، وحملت الدعوات الفكرية والسياسية الى الرأي العام بالمزيد من الافكار الجديدة، وغرس النوازع الوطنية والقومية.. ونشر الاخبار والنصوص والقوانين والوقائع.**

---

* للتوسع، انظر. د. مصطفى خالدي، و د. عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت. ١٩٥٣.

** للاستزادة. الأب لويس شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر والعشرين، (٢ اجزاء) بيروت، ١٩٢٦

٥- بدأت حركة الترجمة عن اللغات الاجنبية الى اللغة العربية تتّسع منذ مطلع القرن التاسع عشر. وقد اعتمدها محمد علي باشا حاكم مصر احد ابرز الشروط لتحديث مصر، مؤسساً مدرسة الالسن في عام ١٨٣٥م بعد ان كانت «الترجمة» قد بدأت في بلاد الشام، وتولّت الجمعيات والمجلات والصحف كـ «المقتطف» و «الهلال» وغيرهما ترجمة المزيد من المقالات والادبيات والاخبار ونشرها بالعربية، فكان لذلك ابلغ الاثر في اطلاع العرب على ثقافة الغربيين وآدابهم وعلومهم ومبادئهم السياسية واجراءاتهم الاقتصادية، وافكارهم الحرة.

٦- تميز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بظهور عدد من الجمعيات العلمية والمنتديات الادبية، وبخاصة في بلاد الشام. وقد كان لتلك التجمعات الثقافية دور بارز وكبير في بلورة النهضة الفكرية- العربية، وقد سادها روح التعاون والتقيّد باللوائح والقوانين المرعية، كما كانت دعماً لجهود الاكاديمية التي بذلها العديد من الاساتذة والمستشارين الغربيين.

٧- كان للمستشرقين والامريكان الدور المؤثر في الاهتمام بالفكر والتراث العربي. ويعد الاستشراق من العوامل الرئيسية في نهضة اوروبا العلمية والادبية والفنية في مطلع العصور الحديثة. وقد قام كثر من المستشرقين المتنوعة اختصاصاتهم برحلات عدة الى المنطقة العربية في ظروف شتى ومن خلال اسباب عديدة، وقد اثاروا بكتاباتهم وآرائهم تفكير المثقفين العرب واهتماماتهم بمختلف القضايا الاساسية في الحياة العربية والاسلامية.

٨- كان للهجرة الداخلية - العربية دور أكيد في التعرف على الذات، وقد دعمت هذا العامل العوامل السابقة، فالهجرة العربية- العربية معروفة في الحياة الثقافية العربية منذ القدم، ولكن كان للتوطن الجديد والتعرف على المعالم الحضارية واستخدام الوسائل والادوات الجديدة كالنشر والصحافة والطباعة الآثار البالغة في عملية النهضة العربية، كما حدث عند كل من السوريين واللبنانيين والتوانسة والمغاربة والمصريين وغيرهم. وقد تأثر بعض منهم ببعض الحركات الاجنبية الهدامة كالماسونية مثلاً.

٢- الافكار العربية الجديدة :-

لقد نتج عن اتصال العرب بالغرب ان تعّرفوا على كثير من الحركات السياسية والمفاهيم التاريخية وانظمة الحكم الغربية. وكان للثورة الافرنسية ان اعجب بها العرب على غرار بقية الشعوب الاخرى قاطبة، اعجبوا ببادئهم في الحرية والاخاء والمساواة خلال القرن التاسع عشر، فظهرت لاول مرة فكرة «المواطنة» و «الوطن» و«حقوق المواطن»، وكان من اوائل الذين تناولوا ذلك رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه «المرشد الامين»، وكذلك خير الدين التونسي الذي حاول ان يجد في الافكار الأوروبية الجديدة مرجعية لها في التاريخ الاسلامي.. ثم جاء دور جمال الدين الافغاني الذي رسم فكره على النهج الذي تحدّث به خير الدين من حيث الدعوة الى الاصلاح السياسي إذ خاطب الافغاني الشعوب الاسلامية على المطالبة بحقوقها المسلوبة. وشارك شبلي الشمّيل فكرة خير الدين التونسي القائلة بأن: انظمة الحكم الاوروبية كانت هي السبب في رقي اوروبا وتقّدمها.. ثم ظهر عدد من المفكرين العرب الذين نادوا بالاصلاح السياسي على قاعدة دستورية- عثمانية، فقد كان بطرس البستاني يعقد الآمال على قيام الدستور العثماني في ٢٣ كانون الاول/ ديسمبر ١٨٧٦م، وهناك ايضا الشيخ محمد عبده الذي تأثر بالطهطاوي، وكذلك عبد الله النديم في كتاباته.. وقد تأثر كلاهما بحركة احمد عرابي.. ويكاد يتفق اغلب المؤرخين المحدثين على ان الاتجاه نحو الوطنية قد ظهر في مصر ونما فيها، وكان له فاعليته واثره على الكتاب والمفكرين العرب. ونستطيع القول أنه اذا كان للوعي الوطني ان ينمو في مصر فقد كان الوعي القومي- العربي قد ظهر وتبلور في بلاد الشام. واذا كان احمد فارس الشدياق قد تحدث عن الوطنية ولكن كان الوعي السياسي العربي يتجلى عند اديب اسحق الذي تأثر بافكار الثورة الفرنسية وآمن ايماناً راسخاً بالحياة الدستورية والولاء العثماني. اما عبد الرحمن الكواكبي فقد نادى بفكرة «الخلافة العربية» اتجاهاً مضاداً لـ «الخلافة العثمانية» الي طبقها السلطان عبد الحميد الثاني اثر الغائه الدستور العثماني *.

---

* ابرز من عالج هذه الافكار بالتفصيلات والنقد المقارن كتاب:
د. سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من اجل بحث رؤيوي معاصر، ط١، بيروت، ١٩٨٩، ص ٥٠- ٥٦.
ومن المهم جداً: مراجعة تحليلات: البرت حوراني وبسّام طيبي ومحمد عمارة و محمد عابد الجابري.

٣- الامتيازات الاجنبية:-

معناها منح رعايا الدول الاجنبية المقيمين في الامبراطورية العثمانية، او السائحين فيها او المارين باراضيها «امتيازات» خاصة لم يتمتع بمثلها العثمانيون انفسهم، وقد كانت هذه «الامتيازات» بمثابة سلاح قتال استخدمته الدول الاجنبية ضد الدولة العثمانية. التي بدأت بمنح اولى الامتيازات التجارية والقانونية لفرانسوا الاول ملك فرنسا من قبل السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر.

ومن اشهر الامتيازات العثمانية خلال القرن التاسع عشر: اعفاء الاجانب من الضرائب المباشرة، ومن جزء كبير من رسوم الكمارك. ولا يمكن ابدا لسلطان الدولة العثمانية دخول اي بيت من بيوت الاجانب في اراضيها مهما كان السبب وحتى وان ارتكبت جرائم فيها، إذ انيطت مسائل كهذه الى القناصل الاجانب، يقومون بالتحقيقات والمحاكمات. ولكل أجنبي الحق في ان يتجول في البلاد العثمانية كما يشاء هواه، واذا اصابه مكروه عمداً او قضاء وقدراً فان حكومة بلاده تطالب بديته اضعافاً مضاعفة من اجل الحصول على امتيازات جديدة. معنى ذلك: ان القوانين العثمانية لم تكن تطبق على الاجانب من رعايا الدول الاخرى في الامبراطوريات العثمانية.

لقد توسعت عمليات تلك الامتيازات مع توالي ضعف الدولة العثمانية، لتشمل الانكليز والفرنسيين، ثم الهولنديين والايطاليين والاسبان،ثم الامريكان ورعايا النمسا وروسيا واليونان.. واخيراً اصبحت الشعوب والاقليات غير المسلمة تتمتع باستقلالات طائفية في الدولة العثمانية، سواء ما يتعلق بالاحوال الشخصية، او الاعفاء من الخدمة العسكرية والضرائب والملاحقات القانونية.. وقد ألغيت هذه الامتيازات عام ١٩١٤ بعد نشوب الحرب العالمية الأولى.

لقد كان من نتائج ازدياد عمليات الامتيازات الاجنبية ولادة نزاعات سياسية بين الدول الاوروبية كانكلترا وفرنسا على «حماية» الاجانب في الامبراطورية العثمانية الذين ليس لدولهم تمثيل دوبلوماسي في اسطنبول كالبلغار والارمن واهل الارجنتين وتشيلي والمكسيك.. وقد استطاع القناصل ان يتمتعوا بمصالح

وامتيازات كبرى تخطوا بموجبها القوانين المرعية، وعمل معهم او ضمن تراكيبهم العشرات من المبشرين والرحالة والآثاريين والمستشرقين والتجار والاطباء والمنتفعين.

اما بالنسبة للاقاليم العربية فقد كان لتلك «الامتيازات» دور فعال في عدد من الحواضر العربية وقد نتج عن بعضها المزيد من القلاقل والاضطرابات والانقسامات نتيجة وضع «الفوارق» في التعامل مع رعايا العثمانيين... وتعد بنود تلك الامتيازات من اكبر الاخطاء التي ارتكبتها الدولة العثمانية بحق اقاليمها ومجتمعاتها وبيئاتها المهمة.

٤- التيارات والاتجاهات السياسية والفكرية عند العرب *.

لقد ظهرت تيارات سياسية عدة منها:

١- **تيار الجامعة الاسلامية:** وقد ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كرد فعل قوي ضد الغزو العسكري الاوروبي والثقافي الغربي للعالم الاسلامي وبضمنه «الوطن العربي». ظهر التيار على يد جمال الدين الافغاني الذي كان من ابرز دعاته، وكان منطلقه ان الاسلام هو دين صالح لنهضة المسلمين، لكن لا بد من تقليد الغرب والتقدم في المجال المادي. ومن ابرز المباديء التي تقوم عليها هذه الدعوة هي:-

١/ اتخاذ الوازع الديني عند المسلمين اساساً في المعركة ضد الاستعمار الاوروبي.

٢/ العمل من اجل إقامة الوحدة الاسلامية طريقاً لمقاومة الغزو الاوروبي.

٣/ ادخال الاصلاحات الكثيرة الى الدول الاسلامية.

٤/ بعث النشاط والهمة لقوى المسلمين الضعيفة.

---

* لقد اختصرت هذا الموضوع كثيراً لانه يقع اساساً في تاريخ الفكر العربي.. ولاغراض التوسع تراجع افكار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا.. وكتابات مصطفى كامل وشبلي الشميل وشكيب ارسلان وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم.

٢- **تيار الرابطة العثمانية:** يعتمد هذا التيار السياسي على مبدأ «العثمنة» اساساً في الترابط بين الدولة ورعاياها من الملل المختلفة. ويرى اصحابه بأن الدولة العثمانية هي دولة مثالية بكل معنى الكلمة!، نظراً لاعتمادها على الارث التاريخي العثماني فلم يفكروا بالانفصال عنها انفصالاً نهائياً، لقد ظهر هذا التيار بوضوح في مصر بعد الاحتلال البريطاني لها في عام ١٨٨٢م، ومثله مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني واستقطب بعض رجالات الفكر والثقافة في كل من مصر وبلاد الشام وقبل تبلور الفكرة القومية - العربية، ومنهم مثلا احمد شوقي ومعروف الرصافي وجرجي زيدان وقد ولد عن هذا التيار تيار سياسي آخر تمثله «الفكرة اللامركزية».

٣- **تيار اللامركزية الادارية العثمانية:** تبلور هذا التيار السياسي كرد فعل تجاه تمادي الاتحاديين في سياستهم، وفشل الجهود المخلصة لاقناعهم بالاخوة العربية التركية وقد ترأسه ووضع بيانه رفيق العظم الذي كان مؤيداً في بداية الامر للحركة الاصلاحية في بلاد الشام.. لكن مجموعة التناقضات السياسية ترافقت مع ضعف الدولة العثمانية، فقد بدأ العظم مع غيره من المثقفين العرب يدعون الى تأسيس العلاقة العربية- العثمانية على مبدأ اللامركزية في الحكم كما اوضح ذلك شكيب ارسلان فيما كتبه عن «بيان للامة العربية عن حزب اللامركزية». كما اوضحته ايضاً لائحة الحزب الاصلاحية في بيروت.

٤- **تيار القومية العربية:** وهو تيار وليد للنهضة الفكرية - العربية وقد مثلته عدة من الجمعيات السرية والعلنية التي نددت بالحكم التركي، وطالبت بمنح الحرية والاستقلال، والاعتراف باللغة العربية، وغير ذلك. وهناك دعوة عبد الرحمن الكواكبي لاقامة «خلافة عربية» في كتابه «ام القرى».. ويرى بعض المؤرخين ان دعوته تلك كانت وراء تشكيل الجمعيات والمنظمات السرية فيما بعد لمقاومة الاستبداد التركي، ويرى آخرون ان الدعوة الى الفكرة القومية كانت حتمية بفعل التأثر بالمسألة الشرقية ومطالب الشعوب.. ان ابرز من يمثل هذا التيار هو نجيب عازوري الذي دعا الى «عصبة الوطن العربي» في باريس، وقد أثار في كتاباته اهتمام الرأي العام بقضية العرب التحررية، فضلاً عن المؤتمر العربي الاول

في باريس والى نشاطات جمعيات وعناصر قومية في كل من بلاد الشام والعراق*

٢/ عهد عبد الحميد الثاني ١٨٧٦- ١٩٠٩

١- مسألة الدستور العثماني:-

ارتقى السلطان عبد العزيز الأول عرش الدولة العثمانية في عام ١٨٦١م، ولم يمتلك خصالاً سياسية تساعده على مواصلة البناء الاصلاحي في المركز واللواحق.. كان كثير الاخطاء، شديد التبذير.. وقد ازدادت النقمة على سياسته، وبدأ المجتمع العثماني يتطلع الى تجارب الشعوب الاوروبية في السيادة

---

* للاستزادة حول المواضيع اعلاه، احيل القارئ الى المرجعيات التالية.

هـ. ا. ر. كيب واخرون، وجهة الاسلام: نظرة في الحركات الحديثة في العالم الاسلامي، تعريب. محمد عبد الهادي أبو ريدة، (المطبعة الاسلامية)، القاهرة، د. ت. (ارخت مقدمته في ١٩٣٤)

- ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥- ١٩٣٦، بيروت، ١٩٧٢.

- مجيد خدوري، الاتجاهات السياسية في العالم العربي. دور الافكار والمثل العليا في السياسة، بيروت، ١٩٧٢.

- احمد امين، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٤٩.

- هشام جعيط، «النهضة والاصلاح والثورة في العالم الاسلامي الحديث»، مجلة المستقبل العربي، العدد(٣٨) السنة (٤)، نيسان/ ابريل ١٩٨٢.

وانظر ادناه بالانكليزية

- Bassam Tibi, Arab Nationalism: A Critical Enquiry, translated by M. F. Sluglett and P. Sluglett, New York, 1981.

- H. Sharabi, Arab intellectuals and the West: The Formative Years, 1875- 1914, Johns Hopkins Univ, 1970.

ومن الأهمية، مراجعة كتاب

البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨- ١٩٣٩، ترجمة: كريم عزقول، ط٣، بيروت، ١٩٧٧. وكتاب: د. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للامة العربية دراسة في الهوية والوعي، بيروت، ١٩٨٤. وكتاب د. وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط١، بيروت ١٩٨٨.

والدستورية وتقييد السلطات والحد من الحكم المطلق.. فانتهى حكمه بعد (١٥) عاماً اثر خلعه، فخلفه السلطان مراد الخامس الذي كان مصاباً بصرع لا يرجى علاجه، فخلع هذا الاخير بعد ثلاثة اشهر، ثم نودي بالسلطان عبد الحميد الثاني في ٣١ آب/ اغسطس ١٨٧٦م، والذي دام حكمه (٣٣) سنة، أي حتى خلعه عام ١٩٠٩. ويعد عهده من أبرز الفترات التراكمية الخطيرة التي ازدحمت خلالها الاحداث التاريخية التي أثرت على حياة الدولة العثمانية، سواء باعلان الدستور العثماني والغائه، ثم سريان روح الثورة السرية وظهورها الى العلن...الى ظاهرة الضعف الاقتصادي الذي حاق بالدولة، وخواء الميزانية وعجزها.. على الرغم من الصفات التي تحلى بها عبد الحميد الثاني الذي كان سلطاناً ورعاً متديناً، لكنه كان حاكماً مطلقاً له القدرة على اخفاء مآربه.. فضلاً عن انه كان يحب التقدم والتجديد، وقد تطور كثير من الاجهزة والمرافق العثمانية في عهده.

عمل السلطان عبد الحميد الثاني على اصلاح الشؤون الداخلية في الدولة العثمانية، إذ نصب مدحت باشا رئيساً للوزراء، واصدر في ٢٣ كانون الاول/ ديسمبر ١٨٧٦م «الدستور العثماني» الذي ساهم بوضعه مدحت باشا الذي كان يؤمن بالمبادئ الحرة والدستورية والمساواة بين رعايا الدولة.. وكانت الافكار الحرة والدستورية قد بدأت بالنمو والتفاعل في المجتمع العثماني من خلال عاملين اساسيين هما:

١- نمو الوعي القومي.

٢- فساد الحكم المطلق.

لقد آمن مدحت باشا بالحكم الدستوري وادماج القوميات المختلفة في رباط عثماني موحد ولكن «الدستور العثماني» لم يوفر كل المتطلبات الحقيقية بصورته التي صدر عليها رغم مجموعة تعديلات اجراها السلطان.. ولم يستمر العمل بالدستور الذي لم يجد فيه عبد الحميد الثاني ما يلبي رغباته، فضلاً عن ان اصداره له كان مجرد تمويه حتى يصل بوساطته الى السلطة، والى تعطيل التدخلات الاوروبية..وبعد ان تحقق ذلك كله بدأ السلطان عبد الحميد بشن حملة سياسية واعلامية ضد التوجهات الدستورية واقطابها وعلى رأسهم مدحت باشا الذي عزل في مطلع شهر شباط/ فبراير ١٨٧٧م، ثم تذرّع باعلان روسيا الحرب، فاصدر

قانونا عطّل به «الدستور العثماني» بعد شهور قليلة من تسنّمه الحكم. وبعد انتهاء الحرب الروسية– التركية، فرضت معاهدة سان ستيفانو الجائرة على العثمانيين، مما حمل بريطانيا التدخل لحمل روسيا على تعديلها مستبدلة اياها بمعاهدة برلين في شهر تموز/ يوليو سنة ١٨٧٨م، ووالتي أثرت بصورة مباشرة على الولايات العثمانية في شرقي اوروبا دون ان تمس بنودها أية ولاية من الولايات العربية لا من قريب ولا من بعيد!

هكذا، غدا عبد الحميد بعد تعطيله للدستور وبعد ابرام معاهدة برلين يحكم حكماً مطلقاً طويلاً ازدادت خلال عهده التناقضات وسوء استغلال السلطات واستشراء الفساد الاداري/ البيروقراطي والمالي/ الاقتصادي بدرجة كبيرة.

٢- السلطان عبد الحميد الثاني والولايات العربية:

كانت البلاد العربية في كل من آسيا وافريقيا العربيتين والخاضعة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني، هي العراق وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية في آسيا العربية. وحسب النظام الاداري– العثماني وتطبيقاته على بلاد الشام التي قسمت الى ولايتين اثنتين وسنجق واحد، وكان تقسيماً متداخلاً مما اضطر الحكومة العثمانية ان تستبدل به نظاماً اخر في عام ١٨٨٧م، حيث قسمت بلاد الشام بمقتضى بنوده الى ثلاث ولايات وسنجقين هي: ولاية حلب شمالا وولاية بيروت غرباً وولاية الشام شرقاً، وسنجق جبل لبنان وسطاً وسنجق القدس جنوباً.

اما العراق، فقد ارجع تقسيمه الثلاثي السابق: ولاية الموصل شمالاً وولاية بغداد وسطاً وولاية البصرة جنوباً. في حين لم يسعف شبه الجزيرة العربية لا التنظيم الاداري المتناسق ولا نظام الادارة المركزية الدقيق، بفعل التطورات السياسية والدينية التي شهدتها سواحل الخليج العربي وهضاب نجد ومدن الحجاز. لقد عيّن على اقليم الحجاز والٍ عثماني منذ سنة ١٨٤١م بقصد اخضاع الاماكن المقدسة للمسلمين وابعادها عن هيمنة الحركات الدينية/ الاصلاحية العربية كالوهابية او السنوسية او الشوكانية... وغيرها.

اما اليمن فقد تجردت نحوها حملتان عسكريتان عثمانيتان من اجل تأسيس حكم عثماني مباشر– كما علمنا– كانت الحملة الأولى سنة ١٨٤٩م، وكانت الثانية

في سنة ١٨٧٢م. وبقي النفوذ العثماني محصوراً في منطقة ساحلية واحدة تطل على الخليج العربي، إذ كان التغلغل التركي واضحاً في اقليم الاحساء (= سنجق الحسا) الذي احتل في عام ١٨٧١م. ولم يستطع الاتراك من السيطرة على دواخل الجزيرة العربية لعقبات كثرة منها: المسافات الصحراوية الشاسعة وتخلف وسائل النقل والمناخ القاسي وندرة المسالك والبعد عن السواحل وشحة المياه... الخ.

وكانت المناطق الساحلية والمدن والموانئ الاستراتيجية العربية المهمة قد وجدت نفسها يوماً بعد آخر امام الاساطيل البريطانية التي كانت تبحث لها عن مواطئ قدم ومحطات وقود وتعبئة عند الشواطئ في قلب العالم الذي كانت تسيطر على اجزاء كبرى منه، وقد عمدت بريطانيا الى احتلال العديد من الجزر عند مدخل البحر الاحمر، وعقدت معاهدة مع مسقط، واحتلت عدن في عام ١٨٣٩م.. ثم بدأت تتقدم لتوطيد مصالحها في شواطئ الخليج العربي.. ولكي تغدو حرية البحار المحيطة بشبه الجزيرة العربية من الاسس والمرتكزات «اللوجستية» التي تقوم عليها السياسة البريطانية في الشرق.

اما افريقيا العربية فعندما تولى عبد الحميد السلطنة كانت دولته تشتمل على تونس وليبيا ومصر والسودان بعد ان كانت الجزائر قد افتقدتها الدولة منذ عام ١٨٣٠م، ثم افتقدت تونس عام ١٨٨١م، احتلت بريطانيا مصر في عام ١٨٨٢م وكذلك السودان في العام نفسه الذي احتله الانكليز من خلال مصر.. وقد قامت بريطانيا بالاعتراف للسلطان بالسيادة الاسمية على كل من مصر والسودان، في حين لم تفعل فرنسا ذلك مع تونس والجزائر، ولم يبق للأتراك من شواطئ على البحر المتوسط في افريقيا الشمالية الا ليبيا التي كانت مقسومة الى ولايتين عثمانيتين هما ولاية طرابلس الغرب وولاية بنغازي.

٣- عبد الحميد الثاني وافكار "الجامعة الاسلامية":- مشروع الخلافة

ويقترن اسم السلطان عبد الحميد الثاني بافكار «الجامعة الاسلامية»، فعندما اعتلى عرش السلطنة كانت قد مضت بضع سنوات على الدعوة الفكرية التي نادى بها السيد جمال الدين الافغاني الذي دعا من خلالها كل المسلمين الى تجديد حياتهم الشرقية على اسس اعتمدت الماضي الاسلامي الزاهر. ويعد الافغاني من اشهر الدعاة المحدثين الذين شهدهم العالم الاسلامي، وكان يهدف الى رفع مستويات

المجتمعات الاسلامية الى المستوى الذي بلغته المجتمعات الحرة المتقدمة، ولكن ليس من خلال ادوات ووسائل تلك المجتمعات الاوروبية، بل من خلال نشر التعليم وتطبيق الدين تطبيقاً يتلاءم وروح العصر مشترطاً ان تكون البلاد الاسلامية متحرّرة من السيطرة الاجنبية كون ذلك يمهد الطريق للنهضة الفكرية– الروحية.

كانت هذه الافكار التي بثّها الافغاني في مصر خلال اقامته فيها للفترة ١٨٧١ - ١٨٧٩م قد انتشرت كثيراً لأنها ترمي اساساً الى احياء الاسلام بشمولية كاملة، ومنذ ذلك الوقت بدأ السلطان عبد الحميد الثاني يؤسس مشروعه السياسي/ الديني القائم على تلك المرتكزات. ولكن؟

لم تكن سياسة عبد الحميد الثاني بصورة عامة قد اقترنت اقتراناً كاملا بالنهج الذي اذاعه جمال الدين الافغاني الذي كان قد مالأ الخديوي عباس في مصر من قبل.. فكان ان اتخذ عبد الحميد من تلك الافكار، محاولة لتكريس الوازع الديني في سلطنته الضعيفة وليقّوي من نفوذه وسيطرته، كما وحاول بشتى الطرق تكريس ظاهرة اسلامية السلطنة رامياً: اظهارها على اساس انها «دولة خلافة» وان السلطان هو «خليفة للمسلمين» دون مراعاة للأسس والقواعد الشرعية، وقد اصبح مصطلح «الخلافة» مجرد تعبير رمزي/ روحي للتشريف بعد ان ازال العثمانيون ذلك الرمز الروحي في عام ١٥١٧م وعلى يد السلطان سليم الاول عندما غزا مصر وقضى على الخلافة العباسية التي كانت تعيش في ظل المماليك.

هكذا، كانت خطة عبد الحميد الثاني طموحاً بالدعوة الى اعادة «الخلافة» الى مكانتها الروحية، وجعلها مقترنة بالحكم والسلطة، واتخاذها دعامة تستند عليها الدولة والمجتمع ومؤسساتها. فاقترنت تلك «الخطة» بالدعوة لجمال الدين الافغاني، ولكنه اقتران سطحي زائف، على الرغم من ان عبد الحميد الثاني قد كسب بعمليته تلك قطاعات كبيرة من الرأي العام عند المسلمين. وكسب ولاء كثير من الشعوب لعرشه وادّخار حماسة دينية في اصقاع العالم الاسلامي. ولكن من جانب آخر، أثار سخط المثقفين والاحرار الذين وجدوا في خططه الدينية مشروع فشل لحكم «الدستور» وتعزيز حكمه المطلق في ارجاء الدولة العثمانية. ولم تنفعه تلك الخطط في معالجة واقعه السياسي والاقتصادي، فمن الناحية المالية، عانت

الدولة من الافلاس، إذ قادت سياسته الاقتصادية الى المزيد ن الصعوبات، فمن اجل الحصول على الاموال قام بارتهان الموارد الرئيسية للدولة لدى بعض اصحاب رؤوس الاموال من الاجانب وخصص الاموال التي حصل عليها لاعادة تنظيم الجيش، فانفق مبالغ طائلة على الكليات الحربية والتدريب العسكري..

اما سياسته الخارجية فقد اخضعها لرغباته وافكاره الخاصة مؤطراً اياها بـ «الاسلام» وإذ كان عبد الحميد الثاني يرمي الى تثبيت مكانة دولته التركية (باعتباره اياها انها لم تزل دولة قوية ومؤثرة) بين الامم. وقد اراد بجعل نفسه «خليفة للمسلمين في داخل الدولة، ثم كسب الاحترام والهيبة لدى المسلمين خارج حدود الدولة. كان يطمح ان يتزعم العالم الاسلامي، وقد اشتهر بأنه يتصف بالزهد والتقشف ومزاولة الشعائر الدينية ومنع الخمر واللهو في عاصمته، وغدا قصره يعج بالفقهاء ورجال الدين، وعين لنفسه مستشارين منهم.. كما كان يوزّع الصدقات والاعطيات، ويرسل عدداً كبيراً منهم الى الدعوة لافكاره الى شتى المدن.. كما اسّس معهداً لتدريب الوّعاظ الذين يرسلون الى بلدان العالم الاسلامي. وقد استطاع عبد الحميد الثاني ان يستميل شريف مكة في سبيل نشر دعوته بين حجاج بيت الله الحرام.. كما وانفق الاموال الطائلة على المعاهد الدينية، وعلى استمالة العناصر غير التركية الى مؤسساته وخصوصاً «العرب» الذين يعدون مادة الاسلام، ولا سيما وان بوادر الوعي القومي تظهر في جنبات اوطانهم، فضلاً عن مبادئ الحرية وفكرة الدستور. وعلى الرغم من الحظوة التي اكتسبها العرب عند السلطان وتكريم رؤسائهم بمنحهم المناصب والمكانة العليا، فإنه لجأ الى زرع الجواسيس ورجال المراقبة حتى على الشريف الحسين بن علي الذي اقام في اسطنبول بأمر من عبد الحميد نفسه سنة ١٨٩٣م وبرفقته زوجته واولاده الثلاثة. علي وفيصل وعبد الله... وذلك خشية من تحركاته. وكان الشريف الحسين في تلك المرحلة شاباً له ارادته الصلبة، وتفكيره الرصين، وخطابه المؤثر، واصالته العربية... جامعاً، بالخصال تلك كل ولاءات العرب.

اما ابرز شخصية سياسية اضطلعت بدورها الفعال في حياة عبد الحميد الثاني فقد مثلها عزت باشا الذي كان يتبوأ مركز السكرتير الثاني للسلطان، والذي اتصف بالذكاء والدهاء. وخاصة في طبيعة العلاقات العثمانية- العربية إذ كان محورا لسياسة عبد الحميد تجاه الولايات العربية، ولا سيما في مدّ سكة حديد الحجاز التي يسرّت سبيل الحجيج في الظاهر، ولكنها كانت ترمي لتحقيق اهداف سياسية وحربية.

قام عزّت باشا بتأسيس مجلس يبين الاهداف الدينية وراء قيام مشروع سكة حديد الحجاز*، وقدّر تكلفة نفقاته، وطلب جمع التبرعات، وفرضت ضريبة على السكان وبدأ العمل في هذا المشروع الاستراتيجي سنة ١٩٠١م لينتهي العمل منه سنة ١٩٠٨م وقد كان لهذا المشروع نتائجه المهمة، منها:

١- قربت سكة حديد الحجاز المسافات العربية الشاسعة بين بلاد الشام والحجاز.

٢- فتحت الاعين العربية على وسيلة حديثة للمواصلات هي اسرع من الوسائل القديمة التي كانت متاحة، فساعد ذلك كله على توثيق الروابط الاقتصادية ونقل الافكار وتبادل الاخبار.

٣- كان لهذا المشروع ابرز الاثر في تثبيت مكانة حكم عبد الحميد الثاني وخلافته لعدد من السنين أكثر من تأثير جميع خططه الاخرى.

٤- كان لهذا المشروع اهمية لوجستية/ عسكرية في تعزيز مكانة الدولة العثمانية في منطقة البحر الاحمر وشبه الجزيرة العربية... وخصوصا في الخط الممتد بين دمشق - المدينة.

٥- اسهم هذا المشروع في تعزيز مصير الحركة العربية، حيث ساعد على اتاحة الفرصة للانفجار ضد الاتراك في ثورة علنية عام ١٩١٦م وخلال الحرب العالمية الأولى.

٤- العلاقات الحليفة مع المانيا القيصرية

توثقت علاقة الدولة العثمانية على عهد عبد الحميد الثاني بالمانيا كثيرا، اذ اعتمد الاتراك على البعثات العسكرية الالمانية في تنظيم جيش السلطان على وفق الاساليب والطرق الحديثة، كما واعتمدت المعاهد العسكرية - العثمانية في انشائها على النظم والاصول الالمانية فكان ان انقلب المتخرجون في تلك المعاهد على نظام حكم عبد الحميد فيما بعد... وغدوا من ابرز العاملين في الثورة والتمرد. فضلا عن ان الدولة العثمانية اعتمدت في تسليح جيشها بالاسلحة والذخائر الالمانية... ناهيك عن الميادين المدنية بورود الوكلاء وعملاء الشركات التجارية وتأسيس المصارف...

---

* انظر: د. فائق بكر الصواف، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز، مطابع سجل العرب، ١٩٧٨.

وقام غليوم الثاني قيصر المانيا في سنة ١٨٩٨م بزيارة العاصمة اسطنبول والذي حفه السلطان عبد الحميد بمظاهر الحفاوة، فنجح القيصر في الحصول على امتياز لمد سكة حديد نحو الخليج العربي عبر الاراضي العراقية، وكان مشروعا استراتيجياً بدأ يهدد المصالح البريطانية، فرفضته بريطانيا لانه المنافس الحقيقي لتجارتها، وخصم يهدد سياستها في الخليج العربي، قام غليوم الثاني ايضاً، بزيارة القدس عبر دمشق ليؤسس نفوذاً له في بلاد الشام وقد قابلته صحافة العالم الاسلامي بالحفاوة والتكريم! كما رحب به عبد الحميد الثاني ترحيباً بالغاً لأن القيصر قد اعلن صداقته للاسلام... ولم يدركوا أن صداقته تلك كانت من اجل بناء منافعه الدولية، ووسيلة دوبلوماسية لتحقيق مصالح استراتيجية! وكان عبد الحميد يدرك مطامع المانيا في دولته، ولكنه كان يعلم بأنه بحاجة الى حليف اوروبي قوي وقد وجد ذلك «الحليف» في المانيا القيصرية أكثر من بريطانيا وفرنسا وروسيا..

وفي ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٠٨م، انتهى حكم السلطان عبد الحميد الثاني إثر انقلاب عسكري قام به بعض الضباط الذين ارغموه على اعادة الدستور، وتنفيذ حكم «المشروطية» بعد تعطيل لدستور كتبه مدحت باشا قرابة ٣١ سنة*.

٣/ العرب تحت حكم الاتحاديين: تبلور الحركة القومية العربية**

(النظام الجديد)

اسس حزب الاتحاد والترقي بين سنتي ١٨٩٤– ١٨٩٥م الدكتور عبدالله جودت مع ثلاثة من الد' 'تراك في باريس. وكان لهذا الحزب شأن كبير في

---

* انظر: أرنست أ. رامزور، تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ترجمة: د. صالح احمد العلي، تقديم د. نقولا زيادة، بيروت، ١٩٦٠. وراجع التفصيلات التاريخية في:
Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.2 (Reform, Revolution and Republic: The Rise of Modern Turkey. Cambridge, 1977, 1978.
ايضا أورخان محمد علي. السلطان عبد الحميد الثاني: حياته واحداث عهده، الرمادي، ١٩٨٧.
Bernard Lewis The Emergence of Modern Turkey, Oxford Univ, Press, 1961.
وراجع. مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق: محمد حرب عبد الحميد، القاهرة، ١٩٧٨.

** كتبت عن هذا الموضوع: العشرات من الكتب والمذكرات والدراسات والبحوث. ولما تزل بعض الوثائق والمعلومات والمذكرات والاوراق الخاصة بحاجة الى تحقيق وتحليل وكشوفات ومعالجات!

حركة تركيا الفتاة المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني وبعد تبلور المشاعر القومية التركية في حين كانت هناك هيئة معارضة اخرى لسياسة السلطان تطالب باللامركزية، وقد انتشرت مراكز متعددة للاتحاديين في ارجاء السلطنة. وكانت قيادتهم مشاعة بين عدد من الشخصيات التي عملت في الخفاء متصلة بعدد من المنظمات الاجنبية. وكان من اهداف حركة تركيا الفتاة منح الحرية لجميع سكان ورعايا الامبراطورية على اختلاف جنسياتهم ومللهم ونحلهم واديانهم، شريطة ان يتنازل المسيحيون عن مطالبهم بتدخل الاجانب باسم «حماية الاقليات».

كانت الدول العظمى التي وقعت على معاهدة برلين مصرة على تلك «التدخلات» على الرغم من فقدان الدولة العثمانية ممتلكات مهمة في اجزاء متعددة في اطرافها في روميليا الاوربية واناضوليا الاسيوية وبلاد المغرب العربي الافريقية حتى وصلت الامور في عام ١٩٠٨م الى طريق مسدودة، دفع الى الانقلاب العسكري التركي في ٢٣/ تموز / يوليو من تلك السنة، إثر قيام مجموعة من الضباط المنتمين الى جمعية الاتحاد والترقي بالعملية الانقلابية واجبار السلطان عبد الحميد الثاني على اعادة العمل بدستور سنة ١٨٧٦م والذي كان قد عطله سنة ١٨٧٧، وان تسير الدولة العثمانية حسب الشعارات التي رفعتها حركة تركيا الفتاة بـ «الحرية والعدالة والمساواة».

لقد غمرت المجتمع العثماني قاطبة غمرات من الاغتباط للتخلص من الحكم المطلق وبدء عهد تاريخي جديد تتحقق فيه تلك الشعارات، فانتشرت فروع جمعية الاتحاد والترقي في جميع ارجاء حواضر الدولة، ونشطت الصحافة والدعاية والكتابات والنوادي والمدارس والدعاة في المضي لتحقيق برنامج سياسي فعال كالذي طرحته الجمعية في اواخر شهر ايلول سنة ١٩٠٩م، والذي نص بتوسيع الصلاحيات الدستورية، وتعميق عرى الاتحاد والاخاء، بين العناصر العثمانية، وتوحيد النشء الجديد مع ابقاء اللغة التركية لغة رسمية في جميع ارجاء الدولة، وكان ذلك وحده نقضا جوهرياً لمبدأ تحقيق الشخصية الفكرية كالتي اعلنت عنها مباديء الحرية والمساواة!

لقد تلقى النظام الجديد اخطر صدمة هزت كيانه تمثلت بالثورة الرجعية المضادة في العاصمة اسطنبول في نهاية شهر مارس ومطلع شهر نيسان سنة

١٩٠٩م، قبل ان تتم المشروطية الثانية شهرها التاسع، وكان قوامها الجنود والدراويش الذي حرضهم الموتورون في العهد الجديد، ولكن قضي عليها وتم خلع عبد الحميد ونصب مكانه اخوه الاصغر محمد رشاد، فبدأ عهد سياسي جديد!

١- جذور العمل السري العربي:

تعد **جمعية بيروت السرية** سنة ١٨٧٦م، أول تنظيم سياسي - عربي معارض للحكم العثماني دعا ببرنامجه السياسي الى الثورة. وقد توقف نشاط هذه الجمعية نتيجة ملاحقات الحكومة للفترة ١٨٨٢- ١٨٨٣م، لكي ينتقل ابرز مؤسسيها. فارس نمر وشاهين مكاريوس ويعقوب صروف الى القاهرة سنة ١٨٨٥م ، فاسسوا فيها جريدة سياسية يومية اسمها «المقطم» ومجلة فكرية اسمها «المقتطف» كان لها دورها في التعريف بالحركة الماسونية واهدافها للفترة منذ ١٨٨٥ وحتى عام ١٩٢٦م ، كما وتأثرت الحياة العربية بالافكار السياسية الجديدة.

وظهرت في دمشق حلقة سياسية تعمل سراً في بيت الشيخ طاهر الجزائري في سنة ١٩٠٣م نهض فيها محب الدين الخطيب بدور عربي بارع، وكان من اعضائها الاساسيين: عارف الشهابي وعثمان مردم ولطفي الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القاسمي... واستخدمت الاهتمامات الثقافية للتوجهات السياسية بمنح العرب حقوقهم القومية، وكان لهذه الحركة اتصالاتها بالشباب المثقف في بيروت مثل: عارف النكدي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني والامير عادل ارسلان واسماء اخرى اظهرت فاعليتها قبيل الحرب الأولى.

وشهد العقد الأول من القرن العشرين نمواً مطرداً في الوعي الفكري المشبع بالاحساس القومي والافكار الحرة، وخاصة عندما بدأ الشباب العربي يتقاطر نحو العاصمة العثمانية من اجل الدراسة واكتساب المعارف في كليات اسطنبول المدنية والعسكرية وخصوصا من ابناء العراق وسوريا ولبنان الذين شهدوا اخطر التطورات السياسية في الحياة الاخيرة للدولة العثمانية ونهايات عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦- ١٩٠٩م، وانقلاب تركيا الفتاة عام ١٩٠٨م والتمردات المضادة عام ١٩٠٩م، وولادة المشروطية الثانية باعادة الدستور العثماني المعطل... والحركة الائتلافية . الخ*.

---

* Hassan Sa'ab, The Arab Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam, 1958.

٢- التنظيمات القومية - العربية في اسطنبول

كانت أول جمعية عربية انشئت خلال الحكم الاتحادي الجديد في اسطنبول، هي : «**جمعية الاخاء العربي - العثماني**» التي افتتحت رسمياً وفي غمرة من الحماسة وسط اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في اسطنبول ٢ ايلول/ سبتمبر ١٩٠٨م، حضره عدد من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وقد هتف الجميع خلال الاجتماع بالاهداف الرئيسية : المحافظة على الدستور، وتوحيد جميع العناصر في الولاء للسلطان، والمساواة الحقيقية، ونشر التعليم بالعربية في المقاطعات العربية... كانت العضوية مباحة وعلنية للعرب، وتقرر انشاء فروع لها في المدن العربية، واصدرت صحيفة تدعو الى افكارها.

على الرغم من المجهودات التي بذلها عدد من الزعماء والادباء والمثقفين والطلاب العرب تجاه الحالة الجديدة في الدولة، ولا سيما في العاصمة اسطنبول: فقد اخلصوا النوايا وعزموا على التعاون مع الاتحاديين، لكن سرعان ما دّبت الخلافات بين الطرفين ، اذ ظهرت بعض المقالات الساخنة ضد العرب في الصحف الموالية للاتحاديين، وبدلاً من تحقيق الطموحات العربية والتطلعات المشروعة في تحسين الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، اضافة الى تشجيع اللغة العربية، فان الاتحاديين اتجهوا في ممارسة مركزية ادارية شديدة معتمدين سياسة التتريك وتعزيز النزعة الطورانية وتمجيدها، والتدخل في الانتخابات بصورة سافرة، وايقاف حل مشكلة اليمن في فرض السيطرة التركية عليها بالقوة... وبدأ الاتحاديون يجرحون بقيم الشباب العربي...

نال العرب صدمة كبرى من مسلك الاتحاديين، اذ شعروا بأن نضالهم من اجل الحرية والدستور والتخلص من الحكم المطلق قد اصطدم بصخرة حكم جائر متعصب، فاصابهم احباط شديد عبر عنه خطابهم وكتاباتهم فيما بعد... كتب مصطفى الشهابي يقول: «كثيرا ما كان غلاة المتشيعين لقوميتهم الطورانية يصرحون بضرورة تطهير اللسان التركي من الالفاظ العربية والتنكر للاسلام، ورفع اسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع، واستبدال اسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك واضرابهم بها، وتحمّس مرة بعض تلاميذهم الاغرار في اسطنبول فقال لي ان العودة الى عبادة الذئب الابيض (= الوطن الاصلي للاتراك) اجدى لنا من دين العرب»!

هكذا لجأ المثقفون العرب من الاحرار وهم نخبة المجتمع العربي للوقوف بوجه تلك السياسة القمعية، فقاموا بتأسيس أول جمعية عربية مضادة للاتحاديين، كان ظاهرها ثقافيا/ ادبياً أما بواطنها فقد كانت تعمل سرّا لتحقيق اهداف سياسية سامية، الا وهي جمعية «المنتدي الأدبي» في اسطنبول، اسستها نخبة فعالة من النواب والادباء والطلاب المثقفين في صيف عام ١٩٠٩م، كي تغدو مركزاً طليعياً لاقامة الندوات والقاء المحاضرات وعرض المسرحيات والروايات وانشاد الشعر.. وقد جرى ذلك كله باللغة العربية واصدرت الجمعية مجلة ادبية بعنوان «لسان العرب»، وغدت للجمعية فروعها في سوريا ولبنان والعراق، ومن ابرز مؤسسيه: عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ورفيق العظم وطالب النقيب وعزيز المصري ورشدي الشمعة واحمد عزت الاعظمي وجميل صدقي الزهاوي وعلي الجميل وحبيب العبيدي وشفيق العظم وزكي الخطيب وسيف الدين الخطيب وجميل الحسني وندرة المطران ونخلة المطران ونجيب حمادة ونعوم شقير وجمبرلي طاش وحليم دموس وغيرهم* ولقد طارت شهرة الجمعية كثيراً، وبقي المنتدى يعمل بقوة ونشاط حتى عام ١٩١٥م عندما اغلقته سلطات الاتحاديين فتوزع اعضاؤه في اماكن عدة من مواطنهم مع بقائهم على اهدافهم وسعيهم من اجل تحقيقها قومياً... اذ تعرضوا للاضطهاد والتعسف فذهب بعضهم مهاجراً الى أوروبا، وقدم بعضهم الآخر حياته ثمناً للمبادئ العربية السامية، والتحق الآخرون بركب النضال في ارضهم العربية... وهم أول من رفع علم الثورة العربية للفترة ١٩٠٩-١٩١١م، ذلك العلم نفسه الذي رفعه الشريف حسين بن علي في الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م.

من جانب آخر، ونتيجة لسيطرة الاتحاديين على الدوائر الانتخابية، شكلوا اكثرية برلمانية، فضلاً عن تمثيل قليل للعناصر غير التركية... وعليه، فقد تشكلت كتلة برلمانية باسم «**الحزب العربي**» كان من اهدافه المساواة الحقيقية لسائر العناصر، وجعل العربية لغة للتعليم ومراعاة حقوق المواطنين في الولايات العربية... الا ان النواب العرب الذين دعوا الى ذلك لم يسعوا للخروج بصيغة

---

* لقد اعتمدت في كتابة هذه المعلومات على بعض آثار جمعية المنتدى الأدبي، وخاصة: مجلة لسان العرب ومجلة المنتدى الأدبي (اعداد سنة ١٩١٠-١٩١٢).

التصديق عليه، لاعتقادهم بأن وجودهم اعضاء في الحزب الحر المعتدل يوفر عليهم قوة معارضة جبهوية ضد الاتحاديين ولكن الحزب الاخير سرعان ما تفكك وانحل بعد تأسيس جمعية الحرية والائتلاف في ٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١١م.

ضمّ **حزب الحرية والائتلاف** عناصر سياسية شتى من الحزب الحر المعتدل والاتحاديين المنشقين وساهم في اعماله بعض المبعوثين العرب، والفكرة الاساسية التي يختلف فيها هذا الحزب ايديولوجياً عن الاتحاد والترقي هو ايمانه باللامركزية، فقد تضمن منهاجه السياسي: توسيع المأذونية وتفريق الوظائف وابقاء الرابطة العثمانية شرط ان تمنح الولايات استقلالاً ذاتيا على اساس اللامركزية، ويبدو ان صدمة الحرب الطرابلسية واندحار الاتراك مما قد دفع بالتفكير السياسي التركي للبحث عن بدائل بعد ولادة انشقاقات سياسية متفاقمة.

هكذا، اشتد الصراع السياسي بين الاتحاديين والائتلافيين في مجلس المبعوثان العثماني فحل المجلس في ١٨ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩١٢م... ولم تستطع الوزارة الاتحادية التي تالفت في ايار – حزيران ١٩١٢ من حل المشكلات المستعصية، فسقطت وتالفت وزارة ائتلافية اعلنت انها ستطبق مبدأ اللامركزية في الحكم.. تلك الوزارة التي جاء بها ضباط الانقاذ، والتي أطاح بها الاتحاديون اثر انقلاب عسكري ثان في ٢٣ كانون الثاني/ يناير عام ١٩١٣م بقيادة انور باشا، اذ بقي الاتحاديون يحكمون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ضمن مبادئهم الثلاثة -- المركزية/ الطورانية/ التتريك. التي لم يقتصروا على تطبيقها سياسياً فحسب، بل حرصوا على غرسها في المدارس، وزرعها بالقوة في الشارع والسوق والقرية.. الخ وقد تطرّفوا كثيراً في برنامجهم السياسي والاداري، وكانت سياستهم حتى نهاية الحرب الاولى تثير حفيظة القوميات المختلفة في ارجاء الدولة، وقد خلفت ردود فعل قومية صاخبة.. فتأثرت المدن العربية تأثراً بالغا، فتبلورت بعض التيارات السياسية– العربية، مثل حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تأسس في القاهرة في نهاية عام ١٩١٢م، سعى لتحقيق القسط الاوفر من الاستقلال الاداري، وان تعمل كل من التركية والعربية في كل ولاية، وان تخصص واردات الولاية لسد حاجاتها، ثم توسيع صلاحيات مجالس الولايات... الخ.

وظهرت في بيروت في نهاية سنة ١٩١٢م جمعية اصلاحية باسم «لجنة الاصلاح» تدعو الى اللامركزية ، وكانت اللجنة تتألف من ستة وثمانين عضواً، كان لهم تاثيرهم في نشر افكارهم في كل من الشام والعراق. لقد كان من ابرز الدعاة العرب الى الفكرة المركزية رفيق العظم وحقي العظم ورشيد رضا واسكندر عمون وعبد الحميد الزهراوي وداود بركات الذين ارتبطت بهم الحركة الاصلاحية.. وفي حين صدمتهم قرارات الحكومة الاتحادية في ٥ أيار/ مايس سنة ١٩١٣م باصدار القانون الجديد للولايات والمناقض للافكار اللامركزية ومما يزيد من وطأة الحكومة المركزية على الولايات العربية وكبت حرياتها السياسية ! ولما ازدادت المقاومة العربية الشديدة استخدمت الدولة صنوف الارهاب والقمع في فرض سياستها، فقامت بالغاء الجمعيات العربية العلنية، فبدأت التنظيمات السرية لمواجهة المخاطر الجديدة. وكان من ابرز الجمعيات السرية. جمعية العهد العسكرية و جمعية العربية الفتاة.

تشكلت **جمعية العهد العسكرية** في اسطنبول بزعامة عزيز علي المصري الذي كان قد ابلى بلاءً حسناً في الحرب التركية/ الطرابلسية- الايطالية وانضم اليه سراً بعض الضباط المتحمسين للقضية العربية مثل: سليم الجزائري ونوري السعيد و طه الهاشمي وجميل المدفعي وغيرهم.. وكان هدف الجمعية : تحقيق الاستقلال الداخلي للاقطار العربية على اساس فيدرالي مع العثمانيين دون الانفصال عن الدولة - كما يذكر نوري السعيد- بل كان الطموح يسعى لتشكيل ادارة عربية محلية، ولغة عربية رسمية، وشراكة سياسية مع الاتراك وكان للضباط العراقيين دور مبرز في الجمعية، فأنشأوا فروعاً لها في الموصل وبغداد عند مطلع عام ١٩١٤م.

لقد قادت نشاطات الجمعية وانتشار فعالياتها الى ان تضرب الحكومة العربية والجمعية بالذات، فاقصت الضباط العرب، ونصبت الولاة الاتراك العسكريين في قيادة الولايات العربية، وكان من اشرسهم: جمال باشا السفاح، وكان اعتقال عزيز علي المصري بمثابة إنهاء للجمعية ومع اندلاع الحرب فقد تفرق الاعضاء و ذهبت الجهود، وعلى الرغم من صغر عمر عزيز علي المصري كأحد الضباط

العرب العثمانيين فقد كان له الدور البارز سنة ١٩٠٩م في تأسيس جمعية اسمها الجمعية القحطانية باسطنبول والتي لم تكن ذا تأثير سياسي قوي بفعل استقطاب جمعية المنتدى الادبي المدنيّة كل الاهداف والآمال والتطلعات *.

٣- النشاط القومي العربي في باريس:

كان النشاط القومي - العربي في باريس والمشرق العربي قد تبلور على نحو كبير قبل نشوب الحرب، إذ كانت باريس قد غدت موئلاً يتجمع فيه الشباب العربي لاغراض الدراسة، فانبرت مجموعة مستنيرة منهم لتؤسس جمعية سرية في باريس سنة ١٩١١م وهي «**جمعية العربية الفتاة**» ومن ابرز اولئك الشباب عوني عبد الهادي ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وجميل مردم ورستم حيدر وغيرهم من الذين كانوا يهدفون الى تحرير بلادهم العربية من السيطرة التركية. وفي سنة ١٩١٣ نقل مركز الجمعية الى بيروت ثم الى دمشق، وانتمى الى عضويتها العشرات من شباب العرب. وكانت من اهم الجمعيات العربية ذات الاهداف السياسية الواضحة، والتي تسلّح اعضاؤها بالوعي والنظام والدقة.. وقد بقيت جمعية سرّية حتى النهاية، اي حتى نهاية الصراع عندما اعلنت الحكومة العربية في دمشق عام ١٩١٨. وكان لهذه الجمعية الدور المؤثر في القضية العربية، وتحملت عبئاً نضالياً كبيراً ايام الحرب الاولى.

ان زيادة التعسف التركي ضد الحكومة القومية العربية دفعت الى العمل القومي خارج نطاق الدولة العثمانية رغبة في تحقيق اهداف متعددة، ابرزها: الوصول الى مسامع الرأي العام الدولي، وكان ان فكّر عدد من المثقفين والطلبة العرب **بعقد مؤتمر عربي في باريس** لتوحيد الآراء والمواقف، وممارسة ضغط على العثمانيين، والدعاية للقضية العربية في اوروبا، ثم الاتصال بالمنظمات والشخصيات العربية المهمة. فكان الاتصال بحزب اللامركزية الادراية العثماني في القاهرة، وذلك لشيوع فكرة «اللامركزية» عهد ذاك، بسبب ضمّ الحزب المذكور رجالات كباراً يمكنهم ادارة المؤتمر وتبنيه.. وقد استجاب العديد من قادة الحركة العربية للنداء وتوّجهوا الى باريس، كان من ابرز اعضاء اللجنة العليا عن حزب

---

* انظر د. سيّار الجميل «انتلجينسيا العراق: التكوين.. الاستنارة.. السلطة» مجلة المستقبل العربي، العدد (١٣٩)، ايلول، ١٩٩٠.

اللامركزية: اسكندر عمون وعبد الحميد الزهراوي نائب حماه في مجلس المبعوثان، والشيخ احمد طبارة صاحب جريدة الاصلاح اليومية في باريس، والدكتور ايوب ثابت سكرتير الجمعية الاصلاحية في بيروت، وتوفيق السويدي احد الطلبة العراقيين لدراسة الحقوق في باريس وجميل مردم احد الطلبة السوريين لدراسة الحقوق في باريس وسليمان عنبر تاجر عراقي..

وقد انعقد المؤتمر على مدى جلسات اربع في قاعة الجمعية الجغرافية الافرنسية للفترة ١٨- ٢٣ حزيران/ يونيو سنة ١٩١٣، وترأسه عبد الحميد الزهراوي وقد حضره حوالي (٢٥٠) مندوباً وعضواً يمثلون الاقطار العربية، كما تلّقى المزيد من البرقيات المؤيدة، واتّخذ عدداً من المقرّرات، ابرزها: ضرورة الاعتراف بحقوق العرب السياسية الكاملة، ودورهم في ادارة الدولة وتحقيق امانيهم القومية، والعربية لغة رسمية في ولاياتهم، والخدمة العسكرية محلية فيها، والدفاع عن الاراضي العربية ضد اي عدوان.. واكد المؤتمر على وحدة الدولة العثمانية وشراكة العرب فيها، وان مقررات المؤتمر هي بمثابة برنامج سياسي للتعامل مع السلطات العثمانية، ولا يسمح لأي عربي ان يرشح نفسه للانتخابات الا اذا تعّهد بتأييد البرنامج وسعيه لتنفيذه.

اجبرت الدولة العثمانية على ان تعلن قبولها لمقررات **المؤتمر العربي الاول**، وفتحت باب المفاوضات بعد ارسالها سكرتير جمعية الاتحاد والترقي مدحت شكري بك الى باريس والذي وقع اتفاقا مع عبد الحميد الزهراوي، ثم صادق السلطان محمد رشاد على الاتفاق المذكورفي ٨ آب/ اغسطس ١٩١٣م اذ صدر مرسوم سلطاني بذلك، ولكن لم يكن الاتحاديون بمخلصين في النوايا والافعال. كما ان المؤتمر قد احدث انقساماً لدى المفكرين العرب، اذ وقف اصحاب الاتجاه الاسلامي يهاجمون المؤتمر ويتهمونه بالخيانة والتعامل مع الاجنبي للقضاء على الاسلام وعلى دولة الاسلام، وكان منهم: شكيب ارسلان وعبد العزيز جاويش واسعد الشقيري وحبيب العبيدي... وغيرهم مما اعطى الفرصة للاتحاديين كي يتخذوا جملة من القرارات السرية في شهر كانون الثاني ١٩١٤م، لكي يقاوموا دعاة الانفصال عن الدولة، وأن يلغوا الجمعيات العربية،ويراقبوا حركات الضباط العرب بعد ابعادهم عن اسطنبول، ويربو عددهم على(٥٠٠) ضابط، وان يتولى القيادة في الولايات العربية ضباط اتراك، ثم المضي في سياسة التتريك.. وترسيخ

نفوذ الاتحاديين في الاراضي العربية بعد تشتيت الضباط العرب وتوزيعهم على الحاميات البعيدة*.

٤- اندلاع الحرب العالمية الاولى وسياسة الاتحاديين:-

تنفيذا للمعاهدة السرية التي عقدت بين الدولة العثمانية ودول المحور المركزي فقد دخلت الحرب العالمية الاولى في تشرين الثاني عام ١٩١٤م بعد ان استغرقت الاستعدادات العسكرية لها قرابة اربعة اشهر، فقد كان النفير العام قد اعلن في ٣ آب/ اغسطس سنة ١٩١٤م، واتخذت روسيا ضرب العثمانيين موانئها في ٢٩ تشرين الاول/ اكتوبر سنة ١٩١٤، حجة لكي تعلن الحرب عليهم في ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر، فكان اعلان الحرب في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر.

نصّب الاتحاديون على قيادة الجيش العثماني الرابع في دمشق وزير البحرية جمال باشا الذي كلّف بمهام استثنائية وعرفية بهدف القضاء على اية تحركات عربية قومية وهو يمضي في حملته على قناة السويس ضد الانكليز، فانهزم جيشه هزيمة نكراء. مع ازدياد وتفاقم النشاطات العربية بتكوين «جمعية العلم» و «جمعية الثورة العربية» بالقاهرة للدعوة الى الاستقلال التام للعرب والثورة المسلحة على الاتراك. فتشكّل في تموز/ يوليو ١٩١٥م الديوان العرفي في عالية بلبنان لمحاكمة الدفعة الاولى من القوميين العرب الذين اتهموا للعمل ضد الدولة بالاتفاق مع بريطانيا وفرنسا، فحكموا ونفذ حكم الاعدام في ساحة البرج في بيروت بـ. عبد الكريم الخليل ومحمود المحمصاني ومحمد المحمصاني وعبد القادر الخرسا ونور الدين القاضي وسليم احمد عبد الهادي ومحمود نجا ومحمد مسلم عابدين ونايف تلّو وصالح حيدر وعلي الارمنازي الذين كانوا منتمين الى حزب اللامركزية وبعضهم الآخر في العمل للانفصال التام عن العثمانيين.

وفي يوم ٦ أيار/ مايس سنة ١٩١٦ قدم جمال باشا (الذي دعي بالسفاح منذئذ) قافلة اخرى من الشهداء العرب على مذبح العمل القومي وفي ساحة المرجة بدمشق والبرج في بيروت، اذ اعدم في دمشق كلاً من: شفيق المؤيد العظم وعبد

---

* من ابرز الكتب في موضوع تنظيمات الحركة القومية هي التي كتبها: جورج انطونيوس ومحمد عزة دروزه واحمد عزت الاعظمي وتوفيق علي برو وعبد العزيز الدوري.

الحميد الزهراوي وعبد القادر الجزائري وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي ورفيق رزق سلوم ورشدي الشمعة. اما الذين تم اعدامهم في بيروت فهم: جرجي حداد وسعيد عقل وعمر حمد وعبد الغني العريسي والأمير عارف الشهابي والشيخ احمد طبارة ومحمد الشنطي اليافي وتوفيق البساط وسيف الدين الخطيب وعلي الحاج عمر النشاشيبي ومحمود جلال سليم البخاري وسليم الجزائري وامين لطفي الحافظ.. اما حكم الاعدام الغيابي فكان من نصيب اكثر من (٩٠) رجلاً من اعضاء الجمعيات والعربية، ومنهم: رفيق العظم وحقي العظم وشبلي شميل ورشيد رضا ونجيب عازوري وداود بركات ويوسف البستاني ومحمد ارسلان وغيرهم.

٥- الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م:

لقد تبلورت أسباب تاريخية عدة لاعلان الثورة العربية الكبرى على الاتراك لا سيما بعد ان تم عقد اتصالات واسعة النطاق في دمشق بين جمعيتي العربية الفتاة والعهد، وتم التوقيع على (ميثاق دمشق) سنة ١٩١٥م مثل فيصل بن الحسين والده الشريف حسين بن علي الذي رشحه القوميون العرب زعيماً للمستقبل العربي وولادة الثورة المسلّحة لما تمتع به من ميزات تاريخية وسياسية وارثية وقومية.. فضلاً عن صفحته الناصعة في العلاقة مع الاتراك.. وكان قد تراسل مع الدوائر البريطانية فيما سمي بـ« مراسلات الحسين- مكماهون» ازاء الاجراءات العثمانية.. ناهيكم عن مركزه الاجتماعي - العربي بين القبائل العربية واستراتيجية الحجاز الجغرافية والدينية، فضلاً عن شرافة مكة المكرّمة.. الخ كلها عوامل اساسية ارتكز عليها القوميون العرب من اجل تحقيق مشروعهم القومي/ التاريخي الكبير عند مطلع القرن العشرين*.

كانت الاتصالات قد بدأت بين الهاشميين والانكليز منذ شهر شباط عام ١٩١٤م في القاهرة بين الامير عبدالله ممثلا عن ابيه الشريف حسين وبين اللورد كتشنر ممثلاً عن الحكومة البريطانية من خلال منصبه (المعتمد السامي).. وقد اختتمت المفاوضات في شهر تموز/ يوليو عام ١٩١٥ بالاتفاق للعمل ضد الدولة

---

* راجع التفصيلات التاريخية في كتب متعددة، منها كتاب محمد امين العمري «تاريخ مقدرات العراق السياسية» (نشر باسم اخيه محمد طاهر العمري)، جـ١- ٢، الموصل/ بغداد، ١٩٢٤.

العثمانية وضد سياستها الاتحادية / الطورانية / ، في حين نجح التنسيق بين الامير فيصل بن الحسين وزعماء الحركة القومية -- العربية الذين اعلموا بتفاصيل الاتفاق مع بريطانيا لإشعال الثورة وتأسيس كيان عربي مّوحد في المشرق العربي و قد و افقوا عليه بعد مطالبتهم اعتراف بريطانيا ببنود ميثاق دمشق فدخل العرب الحرب ضد الاتراك، والقاضية بالاستقلال العربي للمشرق العربي عدا عدن، و اعطاء الافضلية لبريطانيا في المشاريع الاقتصادية.

اعلن الشريف الحسين بن علي الثورة العربية الكبرى في ١٠ حزيران / يونيو ١٩١٦، ففي فجر ذلك اليوم اطلق رصاصته الاولى من شرفة داره بمكة معلناً بدء عمليات الثورة العسكرية ضد القوات التركية، ومعلناً استقلال الحجاز وعن تكوينه لجيش عربي منظم، فان ذلك كلّه بمثابة عهد تاريخي جديد في الحياة العربية في الشرق العربي، وقد استمرت الثورة العربية المسلحة الكبرى حرباً هجومية سيدانية فعالة سنتين ابلى فيها العرب بلاء حسناً عندما اكتسحت قواتهم بدعم بريطاني معظم مواقع الجيش العثماني في الحجاز.. وامتدت الجيوش العربية نحو بلاد الشام بهدف تحريره، ودخلت دمشق في الاول من تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨م، واعلن عن تاسيس الحكومة العربية فيها بقيادة الامير فيصل بن الحسين.

وتعد الثورة العربية الكبرى اعظم جهد واضخم انجاز عربي على المستوى القومي قام به العرب منذ احقاب تاريخية خلت، وكانت ثمرة عمل واتعاب وجهود القوميين العرب من اعضاء الجمعيات العربية العلنية والسرية، كما وشارك فيها الاجماع العربي من ضباط العراق الكبار وقبائل الحجاز العربية وبعض رجالات الشام و مصر واليمن والجزائر.. كما وكان طابع الثورة طابعاً قومياً باشتراك المدنيين والعسكريين العرب الذين جمعتهم الرابطة القومية العربية، والولاء لتلك القيادة التاريخية الشريفية ذات الانتماء الهاشمي الاصيل..

وفي غمرة من التحدّيات والمخططات جرت مؤامرة استعمارية عرفها تاريخ العرب الحديث، متمثلة بتجزئة المشرق العربي الى اجزاء متعددة لتغدو دولا ودويلات فيما بعد وعلى امتداد التاريخ المعاصر خلال القرن العشرين.. لقد تعرض العراق للغزو البريطاني تنفيذاً للمصالح البريطانية الاستراتيجية في

الشرق الاوسط وعلى امتداد سنوات الحرب العالمية الاولى اذ احتلت البصرة في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤، واحتلت بغداد في ١١ آذار/ مارس ١٩١٧ واحتلت الموصل في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨(أي عقب التوقيع على الهدنة). كان هناك سباق استعماري بين اكبر قوتين دوليتين عصر ذاك: بريطانيا و فرنسا، للسيطرة على المناطق الغنية والاستراتيجية في العالم، وابرزها. منطقة الهلال الخصيب

تعد سنة ١٩١٦م علامة فارقة في تاريخ العرب الحديث، خاتمة تاريخية له وبداية عصر تاريخي معاصر مشحون بالتمزق والسيطرة والتناقضات.. في حين انجز العرب اضخم مشروع قومي متمثلاً بالثورة العربية الكبرى بانطلاقته في ذلك العام، مشروعاً تاريخياً ايجابياً لهم ولاجيالهم من بعدهم، فانهم قد طعنوا باشرس سكين في خاصرتهم في ٢٦ نيسان/ ابريل ١٩١٦م عندما وقعت كل من بريطانيا وفرنسا اتفاقية سايكس- بيكو، فكان مشروعاً تاريخياً سلبياً لم يحقق للعرب تكوين دولتهم العربية الموحدة او اتحادهم العربي الكونفدرالي.. بل حققت بريطانيا وفرنسا منافعهما الاقليمية ومصالحها الاستعمارية في القرن العشرين وهكذا بدأ عصر تاريخي عربي جديد اسمه: «تاريخ العرب المعاصر» وقفلت آخر حلقات «تاريخ العرب الحديث»!